الدكتور حسين نصار ومنهجه في دراسة الأدب المصري

د. عوض الغباري*

تختلف آراء الباحثين ، قديماً وحديثاً ، حول منهج دراسة الأدب العربى . وتتجلى بعض معالم هذا الاختلاف فيما يتعلق بتطور هذا الأدب فى الأقاليم العربية المختلفة . ومن هذا المنطلق ثارت مشكلة ما اصطُلح عليه بالأدب الإقليمى .

وقد قام أمين الخولى فى كتابه : «فى الأدب المصرى : فكرة ومنهج» بطرح تصور لدراسة الأدب المصرى على أساس وجود شخصية أدبية مصرية نظراً لاختلاف البيئة الطبيعية فى كل إقليم عربى ، واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية مما يحتم ، فى رأيه ، وجود أدب عربى مختلف ومتميز فى كل إقليم تأثر الأدباء فيه بهذه العوامل المختلفة .

وانطلاقاً من الإيمان بالشخصية المصرية يعتقد أمين الخولى أن دراسة الأدب المصرى من منطلق الذاتية المصرية هى أهم معالم تجديد الدراسة الأدبية فى مصر ، أو البيئات العربية الأخرى التى تنحو هذا النحو فى دراسة الأدب .

وأساس الدرس الإقليمى من هذا المنطلق هو : «أن لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التى تنفرد بها بين الأقاليم . وتلك المزايا والخصائص هى التى توجِّه الحياة الأدبية فيها ، وتؤثر فى سيرها ، وباختلاف هذه المميزات المادية والمعنوية تختلف حياة الإقليم الأدبية ، ويختلف نظام سيرها من نشأة وتدرج وتفرع»[١] .

والأدب المصرى أدب عربى إسلامى ، لا شك فى ذلك ، ولن تغرى الإقليمية بالانفصام الذى يهدد أمل وحدة العرب ، لأنها تستند إلى أصول البحث العلمى الذى يهدف إلى حل المركَّب إلى بسائطه دون جور منهجى على كليهما . وهذه الوحدة المركبة «لن يضيرها أن يشعر كل جزء من أجزائها ، وكل جانب من جوانبها بوجوده وذاته وشخصيته ، فيكون بذلك جزءا أو عنصراً نافعاً مجدياً على الوحدة التى يدخلها»[٢] .

(*) أستاذ الأدب المصرى المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

(١) أمين الخولى : فى الأدب المصرى ، فكرة ومنهج . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٣ ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥-٣٦ .

والإقليمية ، منهجاً للدراسة الأدبية تكشف عن خصائص الأدب العربى فى كل بيئة نتج عنها تفاعل وتأثر وتأثير بالعربية أو فيها ، فتطورت هذه اللغة ، وهذا الأدب العربى فى تذوق كل إقليم له .

والإقليمية ، بمفهومها عند الخولى ، عامل منظم لدراسة الأدب العربى إذا تضافرت جهود الدارسين فى كل إقليم عربى ، كما أنها ترسخ الشعور بالشخصية فى نفس أصحاب كل إقليم ، إذ تؤلف - بتنوعها - وحدة الأدب العربى الشاملة ، وهو ـ على حد تعبير جمال حمدان - ما يُعرف بمبدأ التنوع فى الوحدة أو الوحدة فى التنوع(١) .

وقد بذر أمين الخولى بذرة الإقليمية منهجاً لدراسة الأدب المصرى ، واكتفى بهذا الدور ، ولم يزعم لنفسه أنه وافى بفكرته عنها الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بماهية الأدب المصرى ، عاقدا الأمل على وحدات جيش المعرفة ، على حد تعبيره(٢) ، لبيان معالم الشخصية المصرية فى ميادين الحضارة والثقافة والعلم والفن والأدب . وكان الأستاذ الدكتور حسين نصار فى طليعة هذه الكتائب التى أثرت دراسة الأدب المصرى بكتب قيِّمة ، وأبحاث رفيعة ، وجهود جادة ، أذكر منها دراسته لشعر ابن وكيع التنيسى ، الشاعر المصرى فى القرن الرابع الهجرى ، وظافر الحداد الشاعر المصرى الفاطمى فى القرن الخامس . إلى جانب تنظيره للأدب المصرى فى كتبه الأخرى ، وأهمها : «مصر العربية» .

(١)

ففى تحقيقه ودراسته لشعر ابن وكيع التنيسى يرى حسين نصار أن هذا الشاعر ربيب بيئته المصرية . فشعره معرض فنى لمناظرها المختلفة ، كما أن خفة روحه فى هذا الشعر تعكس وجها مصريا خالصا (٣) .

ويرى كذلك أن شعر ابن وكيع أصدق صورة وأجملها لبيئة تنيس(٤) ، موطن الشاعر ، وقد كانت مدينة الربيع والخمر ، فكان ابنها شاعر الربيع والخمر(٥) . كما أثَّر اشتهار هذه المدينة بالذوق الفنى الجمالى فى صناعة النسيج على مخيلة ابن وكيع فى شعره الذى صور به الربيع وقد حَلّتْه الأزهار بالوشى الجميل حَلّته الرسوم (٦) .

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، ج ١ . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣ .
(٢) فى الأدب المصرى ، ص١٣٥ .
(٣) حسين نصار : ابن وكيع التنيسى ، شاعر الزهر والخمر . القاهرة : مكتبة مصر ، د . ت ، ص ٥ .
(٤) موضع فى بحيرة المنزلة بين المطرية وبورسعيد ، مازالت تلاله باقية إلى اليوم .
(٥) حسين نصار : ابن وكيع التنيسى ، ص ٥ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٦ .

ويرصد حسين نصار فى دراسته لشعر ابن وكيع تأثره بالحياة الاجتماعية والعلمية فى بيئته ، وانعكاس الظروف السياسية فى شعره [١] . ويلاحظ أن شعره الغزلى خصوصا مربعته الشهيرة المعجبة ، بما تجلى فيها من خفة روح تدل على أنه ، بهذه الصفة ، ابن بيئته : مصر [٢] .

يتضح ذلك من قوله فيها :

بخفة الروح احتوى صلاحى فصرت لا أرغب فى الفلاح
والشكل والخفة فى الأرواح أملح ما يُعشق فى الملاح
مَن عشق الفَدْم وإن دق البصر فليقصد البِيعة وليهْو الصور [٣]
مَن كان يهوى منظراً بلا خبر فماله أوفق من عشق القمر [٤]

وكذلك يتضح ظَرف شعر ابن وكيع الغزلى ، وعذوبته وحلاوته وطرافته فى دعوته على حبيبه بأن يصير قلبه عاشقا مثل قلبه إن كان يعلم ماحل به ، ولايأبه بذلك ، «ثم يتغلب عليه حبه فيتمنى له العيش الطيب ، تفديه نفس الشاعر وماله» [٥] :

إنْ كنتَ تعلمُ ما بى وأنت لستَ تُبالى
فصار قلبُك قلبى وصرتَ فى مثل حالى
بل عشتَ فى طيب عيش تَقيك نفسى ومالى
دعوتُ إذ ضاق صدرى عليك ثم بدا لى [٦]

ويرى حسين نصار الغزل الحق فى قسَم ابن وكيع قسما عذبا طريفا «فقد أراد أن يقسم أن الراح تذهب الهم ، فلم يجد عنده أعز من القسَم بعين الحبيب تعده بالوصل خوف الرقيب ، والقبلة المختلسة من خده ، والغناء الحلو فى القصيدة الفصيحة الجيدة» [٧] إذ

---

(١) ابن وكيع التنيسى ، ص ٦-٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .
(٣) الفدم : الأحمق الغليظ . ويريد : الذى لا يبادله حبا بحب ، ولا يؤثر فيه غزله ولا استعطافه . المرجع السابق ، ص٤٥ .
(٤) ديوانه ، المرجع السابق ، ص٤٤ ، ٤٥ .
(٥) المرجع السابق ، ص٢٧ .
(٦) المرجع السابق ، ص٨٧ . وبدا لى : يعنى رجوعه عن هذا الدعاء .
(٧) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

يقول :

لا ، ووعـــــدِ الوصـل بـاللحـ ـظ عـلـى رغـم الـرقــــيب
واخـتــــلاس القُـبلة الحلوة من خـــد الحـبــيب
وسَـــمــاع مـــستطابٍ جـــاء من لـفظ مُـصــيب
مــا ســوىً الراح لداء الهَمِّ عـنـدى مـن طبــيب[١]

ويقسم ابن وكيع هذا القسَم البديع ، أيضا فى قوله :

بمــا بعـينيك من فُـتــون ومن فـتــور بهــا وســحــر
وبـالعــــذار الـذى تـولـى خلع عــذارى وبسط عُــذرى
ومَــضْـحَك منك لؤلؤى مـمـتـزج مِـسْكُه بخـمـر
جُـدْ لىَ بالصـفح عن ذنوبى أوْ لا فـعـاقِب بغـيـر هجـر[٢]

ويعقب حسين نصار على هذا القسم ، مبينا جماله الفنى ، بقوله «وأراد أن يلتمس منه صفحا عن ذنوبه ، أو عقوبة بغير الهجر الذى لايستطيع احتماله ، فاستحلفه بما فى عينيه من فتون وفتور وسحر ، وبثغره المبتسم اللؤلؤى الثنايا ، الخمرى الريق»[٣] .

ثم يؤكد حسين نصار جمال هذا الأسلوب الشعرى الذى يفيض ظرفا فى غزل ابن وكيع فى قَسَمه كذلك بأن الصبر لايجمل عن الحبيب «فكان قسمه بوجه الحبيب يبدى صفحة السيف الصقيل ، وشعره الأسود على خده الأسيل ، وعيونه القاتلة»[٤] :

لا ووجْـــــه لـك يُبــــدى صـفـحَـة السـيف الصـقـيل
وســواد الشَّـعَــر الأســود فـى الخــــد الأســيل
وعــــيونٍ لـك لا تـطرِف إلا عـن قــتــيل
مــا جـمـيلٌ الصــبـر عن مــثلك عندى بجـمــيل[٥]

(١) ديوانه ، المرجع السابق ، ص٤١ . والسماع : الغناء .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص٨٩-٩٠ . والصقيل : المصقول المجلو ، شبّه خده الناعم المشرق بذلك السيف ، والأسيل : الطويل الناعم الأملس .

ويُرجع حسين نصار أسلوب شعر ابن وكيع ، وما تميز به من موسيقى عذبة وألفاظ سهلة تسم شعره بالهدوء ، إلى الطبيعة المصرية الوادعة الهادئة فى ابن وكيع [١] . كما يلاحظ أن الطبيعة المصرية قد أمدت ابن وكيع ببعض التعبيرات المستعملة فى مصر وحدها . ويشير ، كذلك ، إلى نوع من تحرر ابن وكيع من النظم التقليدية للقصيدة العربية تمثل فى تنويع الأنغام الموسيقية فى نظمه للمزدوجة والمربعة ، إلى جانب النسج القصصى لشعره فى مربعته الغزلية ، وأرجوزته فى فصول السنة ، وكثير من زهرياته وغزلياته[٢] .

ويمثل حسين نصار لخيال ابن وكيع الابتكارى بصوره الشعرية التى تربط بين أمور متباعدة لاشتراكها فى بعض الصفات ، حيث سيطرت هذه الصور على مخيلته ، ودفعته إلى أنواع من المشاكلة فى شعره الغزلى ، كأن يقول :

ظبى سُلُوِّى عنه مثل جوده	خياله أكذب من موعوده
أجفانه أسقم من عهوده	أردافه أثقل من صدوده [٣]

كذلك يمثل البديع ظاهرة أسلوبية متميزة فى شعر ابن وكيع خاصة الطباق والمقابلة ، يشكلها فى شعره دون تكلف أو تعمد[٤] .

والتشكيل البديعى فى الشعر المصرى ظاهرة واضحة ترتبط بمفهوم الشعراء المصريين وكذلك النقاد للبديع ، ويعد من أهم المؤثرات الأسلوبية فى الأدب . فلم ينظروا إليه حلية لفظية ، أو وسيلة لصياغة الشعر ، بل وظفوه توظيفا جماليا جعله غاية الأدب ، ودل مفهومهم له - على مستوى الإبداع وعلى مستوى النقد - على تميز مفهومهم للشعر ، مفهوما يتسع بالأساليب البديعية فيه اتساعا يصل هذ الإبداع بما ينتظم القصيدة من ابتكار فى الصور وطرافة فى الخيال ، وتفنن فى عرض المعنى ، ومهارة فى طريقة هذا العرض ، فارتبطت وظيفة البديع الذى استخدمه الشعراء المصريون دون تكلف أو تعمد فى الجانب الإيجابى الأغلب فى شعرهم ، بجمال الصياغة الشعرية ، كما ارتبط البديع بموسيقى الشعر وكان له دوره الهام فى إيقاع التنغيم الموسيقى[٥] .

---

(١) ابن وكيع التنيسى ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٣ .

(٥) انتهيت إلى مثل هذه النتائج فى دراستى للبديع فى شعر الطبيعة المصرى ، راجع كتابى «شعر الطبيعة فى الأدب المصرى» . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٣٤١ ، ٣٥٦-٣٥٧ ؛ وكذلك فى كتابى «نقد الشعر فى مصر الإسلامية» وسنرجع إليه بعد ذلك .

(٢)

وفى دراسته لشعر ظافر الحداد يطرح حسين نصار منهجه لدراسة الأدب، فيؤكد أن التاريخ السياسى لعصر شاعر ليس هدف الدراسة الأدبية، فنحن، على حد قوله «حين نترجم لشاعر لا نؤرخ لعصره، وإنما نؤرخ لرؤيته لعصره وإحساسه، وكلما أحسنًا هذا اللون من التأريخ كان منهجنا أقرب إلى دراستنا الأدبية»[١].

أما كيف أحس ظافر بمصر، وتجلى ذلك فى شعره، فإننا نختار من التجليات المصرية الكثيرة فى هذا الشعر مايكاد يعد ظاهرة أدبية فى شعر ظافر، وهو تصويره للغربة فى شعره فى الحنين إلى الإسكندرية، موطنه، وقد اضطر إلى فراقه، والعيش فى الفسطاط (العاصمة) طلبا للجاه والغنى الذى لم يغنه عن فقدانه لأحبابه وللإسكندرية، وإن لم يظفر فيها بما تمنى من ثمرات موهبته الشعرية من رفعة وغنى، مما قد يعكس طبيعة الإنسان المصرى الذى يرتبط بموطنه، ولا يرضى عنه بديلا. والحق أن الحنين إلى الوطن عاطفة إنسانية عامة، ولكنه عند المصرى فى بؤرة شعوره، لما ميز الحضارة المصرية، فى تاريخها العريق، من استقرار حول وادى النيل، وارتباط المصرى بمكان ولادته، والحنين إليه حتى لو نزل فى مكان آخر داخل هذا الوطن الواحد : مصر.

فالحنين إلى الإسكندرية يستولى على خيال ظافر الحداد، وعلى موضوعاته الشعرية المختلفة. وقد عبر حسين نصار عن ذلك بقوله : «وحدا به الحب إلى التعلق بالطبيعة المصرية، وتصورها برياضها المثل الأعلى لكل جميل سواء كان مجردا كالعيش الآمن، والحب المتمتع، أو كان محسوسا كالحديث العذب، والوجه الحسن، والمبنى الفاخر ... إلخ. وكان الحب المحروم الذى عصفت به الأشواق هو الذى أفقده إحساسه بنفسه، ووعيه بالعالم الخارجى، وأحياه (فى الإسكندرية) على حين بقى جسمه فى الفسطاط (جثة مطروحة)» [٢].

ويعبر ظافر عن حنينه إلى الإسكندرية، واضطراره إلى فراقها بالرحيل إلى الفسطاط فيقول :

وسكناى بالفسطاط عز وإنما ... محل فؤادى فيه أسنى وأشرف
صحبت به عيش الشبيبة خالعا ... عذارى، ولم أحفِل بلاحٍ يُعنِّف

(١) حسين نصار : ظافر الحداد، شاعر مصرى من العصر الفاطمى. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٦- ٢٣٧.

وأهل وإخــوان وبشـــر وغــبطة وأمن ومـحـبـوب وجـاه ومسـعف
تخلفت عن تلك الديار ضـرورةً وبالرغم منى دونهن التـخلف[١]

ويؤكد حسين نصار أن استقرار ظافر بالفسطاط كان له أبعد الآثار فى حياته وشعره[٢] ، فالفسطاط فى نظر ظافر ، لاتعوضه عن حبه للإسكندرية ، وإن جرى نيلها له فضة ، وغدا سفح مقطمها له ذهبا ، إذ يقول :

والله ما اخترت مصرا عنك عن مقة وإنْ غدا العيش لى فيها كما يجب
ولو جـرى نيلهـا لى فـضـة وغـدا سـفح المُـقطَّم منهـا وهو لى ذهب
ما اخترتها عِوَضا ممن نشأت بها ولا شـــفى لىَ منـهـــا غُلَّةً أَرَب
جار الزمان على شملى ولا عجبٌ من ذلك الجَوْرِ بل إنصافه عجب[٣]

ويجور الزمان أيضا ، على ظافر الحداد ، فيأبى القدر أن يمنحه الأمنية الأخيرة فى حياته ، والتى ظل يحلم بها فى شيخوخته :

عسى مُنيةٌ قبل المنيِّة تنقضى فـيـرشف ثغرَ الثـغر طرفى إذ رنا
سـأُلتك رباه عَـوْدا فَـجُـدْ به وجـازِ بخيـر مَنْ دعوتُ فَأمَّنا[٤]

ويجعل حسين نصار شعور ظافر بالغربة مصدر شاعريته وبراعته الفنية فى الوصف . وقد تجلى ذلك فى تفاوت القيمة الفنية بين ما نظمه فى الإسكندرية من شعر ، وما قاله فى غربته ، إذ تومئ الأولى إلى «براعته فى الوصف ، وقدرته على التخيل ، ولكنها لا تبارى ما قاله فى غربته» [٥] .

وقد أثارت طبيعة الإسكندرية فى ذهن ظافر صورة تلو صورة من الخيال البديع ، وألهمته حسا مرهفا ، ومخيلة شعرية حساسة يقظة . فتراه يصور النخيل هيفا حسانا تحلت بعقود الثمر ، ارتوت أغصانها خمرا فتراقصت نشوى ، وشدت طيورها شدوا رخيما جذابا ، أوحى إليه بما يعتلج فى قلبه ، كما يصور أنين سواقى هذا الخليج والحى الذى نشأ فيه ، ويتحدث عن بعض أحياء الإسكندرية الأخرى ، ويرسم صورة عامة للإسكندرية جنة واسعة

(١) ديوانه ، بتحقيق حسين نصار . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٣ .
(٢) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٢١-٢٢ .
(٣) ديوانه ، ص٣١-٣٢ .
(٤) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص٦٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

الأرجاء ، زادها الربيع جمالا وألوانا ووشيا ، وهب فى جنباتها الهواء البليل العطر ، وكللت شمس الأصيل ماء بحرها اللجينى برداء من ذهب[١] .

وينتهى حسين نصار بعد دراسة ضافية لصورة الإسكندرية فى شعر ظافر الحداد إلى ما يؤكد علاقة إبداعه فى رسم هذه الصورة بحنينه وشوقه إلى الإسكندرية قائلا إنه «لم يترك مجلى من مجالى الجمال ، ولا مشهدا من مشاهد الحسن ، ولا أثرا من آثار الخلود ، ولاخاصة من المفاخر ، ولا ميزة من المزايا فى الإسكندرية إلا صورها فى شعره . . . فأعطاها صورة دقيقة مفصلة تحوى كل جميل من معالمها . وصور كل جزء من ذاكرته ، وقد غلفه البعد بسحره ، والشوق بحسنه ، فأحاطه الخيال بمجموعة من الصور التى تكمل شكله ، وتزهى لونه ، وتعمق إيحاءه»[٢] :

يا بلدتى إن يَغِبْ مغناكِ عن نظرى فـإنه فى سـواد القلب لم يَغِبِ[٣]

فذكريات الشاعر فى الإسكندرية ألهمته – حين رحل عنها – قصائد كاملة لايشاركها فيها موضوع آخر ، على حد تعبير حسين نصار[٤] ، الذى أكد ، كما بيّنا ، الارتباط بين غربة ظافر عن الإسكندرية وبين إبداعه الفنى ، إذ يراه حسين نصار ، وقد أقبل على ذكرياته فيها إقبال الحفى الذى أخلص قلبه لها ، وأفرغ ذهنه لصورها ، فينظم فى رسمها أجمل ما قاله من شعر ، غنًى فى الانفعال ، وتنوعا فى الرسم ، وعذوبة فى النغم ، واستلهاما للخيال»[٥] .

لقد استولى حب الإسكندرية والشوق إليها على قلب ظافر فهو فى الفسطاط «بائس حزين بعيد عن الأصدقاء والأحباب والأهل وموطن الجمال والمتعة ، قد فقد شبابه ، وأضر به حبه الثابت لمسقط رأسه ، ولوعة حنينه إلى الإسكندرية . ينظر إلى الإسكندرية من خلال أطياف الحب ، ورؤى الشوق ، وأحلام الحرمان فلا يرى إلا سحرا وفتنة ورواء»[٦] .

وشعر الطبيعة فى ديوان ظافر ، فى رأى حسين نصار ، يجعله ابنا للطبيعة المصرية [٧] ، وشعره فى الحنين إلى الإسكندرية ، خاصة ، أروع ما نظم «فقد نمى فيها قدراته جميعا ،

(١) ظافر الحداد ، ص ٩٨ - ١٠٦ .
(٢ المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص١٠٨-١٠٩ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
(٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، وراجع أيضا ، ص ٢٣٧ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

وأبرز خصائصه الفنية كلها ، وأصدرها مفعمة بأعمق مشاعره وأزخرها ، وألبسها أعذب حلله وأحلاها»[١] .

ولا يقتصر أثر الحنين إلى الإسكندرية فى إبداع ظافر الحداد لشعر الطبيعة ، بل يتجلى هذا الحنين فى شعره الغزلى كذلك ، «إذ يسمو ظافر بالغزل فيجعله جوهر الشعر وينبوعه»[٢] ، مبدعا من فنونه معانى وصورا يرتبط فيها شوقه إلى الإسكندرية بشوقه إلى حبيبته ، فهو على حد تعبير حسين نصار ، «يكتوى بنار الحب ، وتحرقه جمرات البعاد ، فيعصر الشوق فؤاده كما عصر فؤاده هو حنينه إلى الإسكندرية»[٣] ، فيدرك «من المعانى والصور عند التعبير عن حبه ما لا يدرك هو نفسه فى غير الغزل من فنون الشعر :

كم فكرةٍ أنتجت معنى لملتهب ... بالشوق لو رامَه فى غيره عَزَبا[٤]

وينتهى حسين نصار إلى أن الطابع الابتكارى الذى يطبع الشخصية الشعرية لظافر الحداد يتجلى فى شعره الذى يجعل الإسكندرية والطبيعة والحبيبة شيئا واحدا[٥] .

وتجلت شخصية ظافر الشعرية كذلك ، فى ارتباطه بالفنون المصرية مثل العمارة والنقش والخط والغناء ارتباط صانعها بها ، فتعرف على جوانب متعددة منها . فإذا كان قد صور الكثير من مجالى الجمال فى الطبيعة المصرية ، والكثير من الرجال والمثل والوقائع فى المجتمع المصرى ، فإنه قد منحنا مجموعة من الرسوم المعبرة تعبيرا وافيا عن هذه الفنون»[٦] .

وهنا يلتقى ظافر الحداد مع ابن وكيع فى بعض الظواهر الفنية التى تتجلى فيها بعض خصائص الشعر المصرى ، كما يلتقى به فى استمداده من البيئة المصرية معانى وصورا شعرية تتصل بمجتمعه ، وبالواقع الجارى أمامه ، ويصور مصر : الأهرام والنيل هذه الصورة الشهيرة البديعة :

تأمل هيئة الهرمين وانظر ... وبينهما أبو الهولِ العجيب
وماءُ النيل تحتهما دموع ... وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهِرُ سجن يوسف مثل صَبٍّ ... تخلّف فهو محزون كئيب[٧]

---

(١) ظافر الحداد ، ص ٢٤٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .
(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .
(٧) ديوانه ، ص٤ .

ويمثل البديع ، خاصة الطباق والجناس ، ظاهرة فنية فى شعر ظافر الحداد[١] ، كما تميز هذا الشعر بظاهرة أخرى هى الميل إلى الفكاهة والسخرية ؛ فاتسمت صوره بخفة الظل وحلاوة الروح [٢] ، وهنا يلتقى بابن وكيع التنيسى فى شعر يكشف عن بعض جوانب الشخصية المصرية .

(٣)

وتمثل دراسة الأدب فى مصر بعد الفتح العربى لها فى السنة العشرين للهجرة معضلة من المعضلات التى تواجه قضية الشخصية المصرية فيه ، لفقدان النصوص وعدم العناية بدراستها ، لأن مصر كانت تابعة للخلافة الراشدة أو للخلافة العباسية[٣] فى هذه العصور الأولى من تاريخها العربي ، ومن ثم فإن الحكم على خصوصية أدبها فى تلك الفترة يواجه تحديات أكبر من التحديات التى تواجهها عصور الاستقلال والقوة فيها .

وقد واجه حسين نصار هذه المشكلة ، ورأى أن تتبع الأفواج العربية المهاجرة إلى مصر ، واستقصاء ماضيها فى شبه الجزيرة العربية هو «المنهج السليم للتعرف على الألوان الأدبية التى دخلت مصر ، واطلع عليها المصريون ، وتمثلوها ، وربما حاكوها ، فهو إن لم يعطنا خصائص الأدب المصري ، أعطانا خصائص الأدب الذى كان يصدره من وفدوا على مصر قبل وفادتهم ، ولا شك أنهم حملوه إليها ، وربما استمروا فى التحلى بها فيما أصدروه بها» [٤] .

ومع ذلك ، فإن ما عُرف من هذا الأدب العربى فى مصر فى بداياته المبكرة قد أدى إلى الوقوف على بعض الملامح الفنية لهذا الأدب المصري . فقد برع المصري ، على حد رأى حسين نصار ، فى فن السخرية ، واتخذ الإضحاك سلاحًا من أسلحة المقاومة ضد خصومه ، وصور شعره اتصال الأدب بأحداث الحياة والمجتمع ، كما فى هجاء سعيد بن عفير للأمير وصاحب الخراج ، وانتقاده لسوء الأحوال فى مصر بسبب الغلاء والإسراف فى جمع الضرائب حيث يقول :

ما كنت أحسب أن الحَيْنَ يجمع ما ... أمسى بمصر من الأنذال في الإمَرِ[٥]

إلى آخر القصيدة .

---

(١) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) وإن تخللها استقلال سياسي لمصر في العصرين الطولوني والإخشيدى .

(٤) حسين نصار : مصر العربية ، ص ٥ ، منشورات اقرأ ، ط ثالثة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص٧٧ ، وراجع أيضا ص٧٥ ، ٧٦ .

وكما فى تصوير الأحداث السياسية فى مصر ، ورثاء الشعراء لدولة الطولونيين ، والبكاء على زوال مجدهم فى قصيدة سعيد القاص المطولة :

جرى دمعُه ما بين سحر إلى نحر ولم يجرِ حتى أسلمته يدُ الصبر[١]

ويخلص حسين نصار بعد دراسته لألوان من هذا الشعر إلى أن «الشاعر المصرى من أول الشعراء الذين حاولوا أن ينظموا أمجاد بلادهم ، والصفحات المشرقة من تاريخها ، وأن يبكوا الدول التى وفرت لبلادهم الحضارة والترف والنعيم» [٢] .

ويتناول حسين نصار أثر مصر فى شعر الهذليين . ورغم اتضاح موقفه من أن الشعراء الهذليين قد نضج شعرهم فى بيئتهم الأصلية قبل وفودهم إلى مصر ، فإنه لا ينفى تسرب أثر ضئيل لمصر فى شعرهم لا يتنافى مع شخصيتهم العربية ، حيث واجه «الشاعر الهذلى فى مصر طبيعة تخالف طبيعة بلاده من وجوه عدة ، فتنبه إلى المظاهر الكبرى التى أثرت فى حياته الجديدة»[٣] .

ويرى نصار أن أبرز مظاهر تأثير البيئة المصرية فى شعر الهذليين تتجلى فى حديثهم عن النيل ، هذا النهر العظيم «الذى ارتقى به المصريون فسموه البحر ، والذى لم ير له العرب مثيلا»[٤] . وأخذ يتتبع الصور الشعرية التى ألهمها النيل وواديه وزروعه ، خاصة القمح ، خيال الشعراء الهذليين ، مميزة عن الخيال العربى الخالص[٥] .

ولعل مصر ، فى رأى حسين نصار ، قد أثرت فى الشعراء الوافدين إليها ، فقد زودت أبا تمام ، مثلا ، بالتذوق الرائع للأدب العربي ، والقدرة على الإسهام فيه ، كما زودته ، فى رأى بعض الباحثين «ببعض خصائص مذهبه الذى عُرف به ، وأخذها الشاعر عن شاعر مصر السراج دون أن يدري» [٦] ، وهو «الإغراب الذى عابه أبو تمام على السراج ، ثم عابه النقاد ، بعد ذلك ، على أبى تمام»[٧] .

(١) حسين نصار : مصر العربية ، ص٨٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص٨٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) المرجع السابق ، من ص ١٢٨ - ١٢٩ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .
(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وتأصيلاً لبواكير الإقليمية منهجاً لدراسة الأدب العربي ، يشير حسين نصار إلى تمييز بعض علماء اللغة للهجات العربية على أساس بيئتها ، وحكمهم على فصاحة بعضها أو عدم فصاحتها بهذا المعيار . فقد عدوا عربية نجد ، مثلا ، أفصح من عربية مكة قبل عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحتى العصر الأموي ، فلم يأخذوا عمن ابتعد عن نجد من الشعراء ، ولذا رحل بعضهم إلى البادية لتعلم اللغة على أساس أن اللهجات الفصيحة هى لهجات القبائل التى عاشت فيها بعيدًا عن المؤثرات الخارجية التى شابت اللهجات العربية الأخرى لقبائل عاشت بعيدة عن البادية ، أو اتصلت بشعوب غير عربية مما سبب ضعفها ، وبعدها عن الفصاحة العربية الخالصة .

وقد أشار نصار إلى الفئات التى ربطت بين الشعراء وبيئاتهم ، عد منها فئة النقاد ممن فرقوا بين ذوق أهل البادية وأهل الحاضرة ، فوصفوا أهل البادية بالغلظة والخشونة خلافاً لرقة أهل الحاضرة . كما أشار إلى اعتداد ابن سلام بأثر البيئة فى الشعر ، قلة وكثرة ورداءة وجودة ، فقد كان كتابه «طبقات فحول الشعراء» أول كتاب فى تاريخ الأدب يلتفت إلى أثر البيئة فى الشعر[١] .

وربط ابن قتيبة[٢] بين تنقل البدو وبدء قصائدهم بالوقوف على الأطلال . ووصل ابن طباطبا إلى القمة فى إبانة أثر البيئة فى المضمون الشعري ، على حد تعبير حسين نصار ، حيث أعلن أن « العرب أودعت أشعارها ما أدركه عيانها ، ومرت به تجاربها » بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فنفى أن يكونوا أتوا بشيء من خارج بيئتهم «فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها» [٣] .

كذلك أشار حسين نصار إلى التفات على بن عبد العزيز الجرجاني[٤] إلى أثر البيئة بادية أو حاضرة ، فى الأذواق والأسلوب الشعرى وأنه «وازن بين عدد من الشعراء للبرهنة على صحة ما أدلى به من أحكام ، بل اختار شعراء جاهليين وإسلاميين لهذه الموازنة ليبين أن أثر المكان أقوى من أثر الزمان»[٥] .

---

(١) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربى ، تعبيره عن الوحدة والتنوع . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الأمم المتحدة ،١٩٨٧ ، ص ٢٢٩ .

(٢) في كتابه «الشعر والشعراء» .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ . وراجع أيضًا : ابن طباطبا : عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق : محمد زغلول سلام . الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» .

(٥) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربي ، تعبيره عن الوحدة والتنوع ، ص ٢٢٠ .

كذلك ينبه حسين نصار إلى أن بعض الشعراء قد ربطوا بين البيئة والشعر مثل كُثَيِّر الذى كان يرى «أن هناك بيئات تسد مسالك الشعر أمام الشاعر، وهناك بيئات تدفعه إلى النظم، وأن البيئة التى يتوافر لها الجمال الطبيعى تدخل بالشاعر فى حالة انفعالية تصل به إلى عملية الإبداع، وتستدعى ما أحب من الشعر، بل يمتاز الشعر الآتى فى مثل هذه البيئة بجمال فنى قد لا يتوافر فى إنتاج غيرها من البيئات»(١).

أما أظهر كتاب اتخذ مؤلفه من التقسيم البيئى أساسًا لدراسة الشعر (٢) فهو كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبى، الذى رتب شعراء عصره الذين ذكرهم فى أقسام أربعة :

القسم الأول : فى محاسن أشعار آل حمدان (من أهل الشام، وما يجاورها من مصر والموصل والمغرب).

القسم الثانى : فى محاسن أشعار أهل العراق.

القسم الثالث : فى محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان.

القسم الرابع : فى محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر(٣).

وقد تابعه الباخرزى فى كتابه «دمية القصر وعُصرة أهل العصر»، وابن بسام فى «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»(٤). ويجمل حسين نصار تصوره لعلاقة الشعر بالبيئة فى قوله : «ومجمل القول أن الشعراء خضعوا للآثار التى تفرضها كل بيئة، وما يجرى فيها من تيارات ثقافية متغايرة عن وعى من بعضهم، وعن غير وعى من أكثرهم، ولذلك اختلفت صورة ما أصدروه من شعر فى الأقطار العربية المتعددة، والعصور المتعاقبة، ولم يقف الأمر بهم عند هذا، بل كان منهم من له حس أرق، وفطنة أثقب، فتنبهوا إلى أثر البيئة فى المجالات الشعرية المتعددة، وكشف أقدم الأخبار التى عثرنا عليها أن أقدم تنبه كان فى مجال عملية الإبداع، عونًا لها أو إعاقة، ثم فطن الشعراء إلى ما تخلفه البيئة من آثار فى شكل القصيدة ومضمونها، بل إلى عناصر جزئية فى المضمون، وقد أثار هذا التنبه أول ثورة عامة على العرف العربى القديم فى بناء القصيدة»(٥).

وهذا تصور يضع الأدب الإقليمى فى نصابه، ويتناوله تناولاً موضوعيًا، ولا يهدر خصوصية الإبداع الأدبى لحساب الإقليمية، بل يضعها فى سياقها حركة من حركات تطور الأدب العربى.

---

(١) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربى، تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٣) راجع مقدمته، بتحقيق : علي محمد عبد اللطيف. القاهرة : مطبعة الصاوي، ١٩٣٤.

(٤) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربي، تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٣٤.

(٥) المرجع السابق.